الفصل الرابع

محمد طلعت حرب والحركة الوطنية

لا يستقيم أى تقييم لنشأة وتطور بنك مصر إذا ما تجنب التعرض لدور مؤسسه محمد طلعت حرب. فالصورة النمطية للبنك لدى عامة المصريين تضع تركيزا كبيرا على الدور الذى لعبه طلعت حرب فى تأسيس وتطوير البنك ومجموعة شركاته. غير أن تتبع الرواية الفلكلورية حول بنك مصر، قد يقود فى الواقع إلى خلاصة مؤداها أن تحليل أنشطة طلعت حرب هو أمر كاف لفهم تطور البنك ذاته، وهى رؤية مبالغ فيها بالطبع. إلا أنه مما لاشك فيه أنه لولا جهود طلعت حرب لما كان لبنك وطنى مصرى أن يتأسس فى العام ١٩٢٠، ويتطلب دور طلعت حرب فى بنك مصر ومجموعة شركاته خلال عقدى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين تلك تحليلا أشمل للقوى السياسية والاجتماعية ـ الاقتصادية التى أثرت على البنك خلال تلك الفترة. وهذا الفصل سوف يكتفى باستعراض حياة طلعت حرب قبل عام ١٩٢٠، والعوامل التى أثرت فيه وصولا لتأسيسه لبنك وطنى مصرى.

وُلِد محمد طلعت حرب فى ٢٥ نوفمبر ١٨٦٧ بقصر الشوق ـ فى حى الجمالية بالقاهرة، أما والده ـ حسن بك محمد حرب ـ فولد فى ميت أبو على، وهى قرية صغيرة بمركز الزقازيق بمحافظة الشرقية؛ فى حين كانت والدته تنتمى لعائلة صقر والتى كان مركزها فى قرية كفر محمد أحمد بمركز منيا القمح بذات المحافظة.[1] وكانت عائلة حرب بالأساس عائلة بدوية، فوفقا لمؤرخ الشخصيات العربية المعروف خير الدين الزركلى، فإن

(١) مكتب البحث الاقتصادى ببنك مصر. **اليوبيل الذهبى**. ص. ١٣٧.

العائلة جاءت من قبيلة حرب والتى استقرت بين مكة والمدينة بالحجاز. وكان الزركلى قد وصل لهذه الخلاصة بعد سماعه لطلعت حرب يتناول هذه المسألة إما فى حوارات شخصية أو مع آخرين (سمعته مرة يتحدث عن قبيلة حرب القاطنة بين الحرمين فى الحجاز فرجح أن يكون أصله منهم).[١] وفى إطار جولة له بالعراق عام ١٩٣٦ خلال محاولته الحصول على حقوق الهبوط لطائرات مصر للطيران هناك، ذكر طلعت حرب للمراسلين أن عائلته أصلها بدوى وأن قبيلته يرجع أصلها لمنطقة البصرة.[٢] هاتان الروايتان المتعارضتان حول أصل عائلة حرب يمكن الوصول لصيغة مشتركة بينهما حيث أنه ليس من المستبعد أن الجزء الذى قدم من قبيلة حرب إلى مصر، جاء إليها من منطقة البصرة عن طريق الحجاز.

ولعل الظروف الاقتصادية القاسية فى الحجاز هى التى حدت بشكل كبير بعدد من القبائل البدوية للقيام بهجرات متكررة لمناطق فى الصحراء الغربية المصرية أمكنهم منها إما الإغارة على مدن الدلتا أو الدخول فى تجارة مع الفلاحين. وقد تم قمع العديد من هذه القبائل البدوية إبان حكم محمد على باشا ـ لاسيما القبائل القوية التى حلت من ليبيا وبسطت سيطرتها على أجزاء كبيرة من صعيد مصر. كما أضحى عدد من قادة البدو الآخرين ملتزمى ضرائب خلال فترة حكم الباشا وهو ما تم مكافأتهم عليه بمنحهم إقطاعيات كبيرة من الأراضى مقابل خدماتهم، مثل عائلة أباظة المعروفة من محافظة الشرقية على سبيل المثال.

ويصبح الأمر أكثر صعوبة عند محاولة التعرف على الكيفية التى تحولت من خلالها العائلات البدوية الأقل مكانة ـ كشأن عائلتى حرب وصقر ـ لنمط الحياة الحضرية. ولعل الاحتمال الأرجح هنا هو أن التناقض بين قسوة وتقلبات الصحراء وحياة البداوة وبين حياة الفلاحين الأكثر أمنا قد جذب العديد من البدو للاستقرار فى مناطق مثل واحة الفيوم ومحافظة الشرقية. واتخذت عملية تمدن البدو المصريين أشكالا أكثر وضوحا مع التوسع فى زراعة القطن وتحسين الرى وما صاحبه من زيادة فى مساحة الرقعة الزراعية.

---

(١) خير الدين الزركلى. **الأعلام: قاموس التراجم**. بيروت: بدون ناشر، بدون تاريخ نشر. الطبعة الثالثة. ج ٧. ص. ٤٥.

(٢) **المقطم**. ٢٢ أبريل ١٩٣٦.

ووفقا لسجلات الأراضى عام ١٨٤٥ (١٢٦٢ هجرية)، وهى أقدم سجلات أمكن التوصل إليها لقرية ميت أبو على، فإن عائلة حرب كانت مستقرة بالفعل وكانت ذات مركز فى القرية فى هذا التاريخ، وكانت هناك عشرة فدادين مسجلة باسم على حرب ـ جد طلعت حرب. كما وُجِد اسما ابنيه ـ حسن وخضر ـ مدونان تحته (ولكن دون أى ذكر لأى مساحات من الأراضى بجوار اسميهما) وهو ما يشير إلى أن نمط ملكية الأراضى فى ميت أبو على كان مسايرا لما كان عليه الحال فى هذا الشأن فى بقية أنحاء مصر خلال تلك الفترة، وهو أن ملكية الأراضى تتم بصورة جماعية للعائلة وتسجل باسم أكبر أعضائها سنا (العميد). كما تشير حقيقة أن كبير العائلة ـ على حرب ـ كان مشارا إليه بالشيخ فى واحدة من وثائق طلعت حرب القانونية إلى تمتعه بنوع من المركز المرموق فى ميت أبو على.[١]

وفى العديد من سجلات الأراضى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان من الصعب تحديد مساحات الأراضى التى كانت بحوزة كل فرد. ونظرا لأن أحواض الأراضى الثلاث كانت مقيدة بجوار اسم على حرب فى الأعوام ١٨٤٥ و١٨٤٦ و١٨٤٨ ولكن بمساحات مختلفة، فقد يكون من الممكن أن الأرض المزروعة هى التى كانت يتم فرض الضرائب عليها، وهو ذات الإجراء الذى كان متبعًا فى صفط أبو جرج بمحافظة المنيا كما سبقت الإشارة إليه. ونظرا لأن سجلات الأراضى كانت تعد بالأساس لأغراض ضريبية، فإن حقيقة أن على حرب كان مسجلا بحوزته عشرة أفدنة فى ١٨٤٥ وسبعة أفدنة فى ١٨٤٦ وستة أفدنه فى ١٨٤٨ لم يعن بالضرورة خسارته لأراض كانت بحوزته وإنما بسبب حدوث تعديلات فى تقدير الضرائب المفروضة عليه على الأرجح. ولعل الواضح هنا أن والد طلعت حرب ـ حسن ـ لم يكن هو الفرد الأعلى مكانة فى العائلة، وإن كان يتمتع بحقوق فى الأراضى بحكم ذكر اسمه تحت اسم والده على حرب فى سجلات الأراضى.

وفى المجموعة التالية المتاحة من سجلات الأراضى، والتى كانت تغطى العام ١٨٥٧، كان واضحا أن على حرب قد توفى؛ فى حين ورد اسم أحمد حرب ـ أخوه على الأرجح ـ وبحوزته تسعة فدادين كما ذكر اسما حسن محمد حرب وخضر حرب على ظهر السجل وبجوارهما تقييم الضرائب المقدرة عليهما فى حين لم تذكر أى مساحات من

(١) PPTH, تعيين طلعت حرب وكيلا عن أحمد بليغ باشا.

الأراضى بحوزتهما. وفى المجموعة التالية من السجلات، والتى كانت للعام ١٨٧٥، كان بحوزة أحمد حرب تسعة فدادين وستة أفدنة بحوزة خضر حرب فى حين كان بحوزة حسن حرب أكثر قليلا من الفدان. وهكذا فإن ممتلكات العائلة من الأراضى كانت تتراوح بين ثمانية وستة عشر فدانا بين عامى ١٨٤٥ و١٨٧٥.[١] وبينما لم تمكن هذه المساحة العائلة من أن تصبح بين العائلات المرموقة فى القرية، فإنها قطعا سمحت لأفرادها أن يكونوا من بين قاطنيها ذوى الاعتبار.

وبمحاولة سبر أغوار التركيبة الاجتماعية لقرية ميت أبو على، تتكشف لنا بعض القوى التى ساعدت فيما بعد على تشكيل شخصية طلعت حرب. فكما كان عليه الحال فى بقية قرى مصر، كانت ميت أبو على واقعة تحت نظام الضرائب الزراعية خلال مطلع القرن التاسع عشر. وفى حين كان بمقدور أعيان قرى صعيد مصر التمتع بقدر أكبر من النفوذ، لم يكن الحال كذلك فى الدلتا وذلك نظرا للصعوبات التى قابلها النظام الحاكم فى القاهرة فى بسط سيطرته على الصعيد. وهكذا فبينما كان أعيان القرى يتولون جمع الضرائب فى قراهم بصعيد مصر، كان الغالب أن يقوم على هذه المهمة موظفو الحكومة فى قرى الدلتا، وهو ما كان صحيحا خصوصا فى حالة محافظة الشرقية حيث كانت بعض مراكزها تقطنها قبائل البدو الوافدة حديثا، علاوة على تلك التى كانت لا تزال مستقرة فى الصحراء ـ التى كان ينظر إليها على أنها تمثل تهديدا محتملا لأمن الدولة. أما فى ميت أبو على، فقد كان يقوم على العهدة (أو وظيفة جمع الضرائب) مسئول حكومى هو رفعت بهجت بك، والذى كان مفتشا لهندسة المنوفية والغربية فى الوقت ذاته.[٢] وفى عام ١٨٤٥، بلغ ما كان بحوزته من الأراضى ٨٣٠ فدانا وصلت إلى ٨٤٥ فدانا فى عام ١٨٤٨.

ونظرا لكونه مشرفا على المنوفية والغربية، فقد يكون من المرجح أن بهجت بك كان يمضى وقتا قليلا فى ميت أبو على. وكذلك، بالأخذ فى الاعتبار أصوله التركية ـ الشركسية التى يشى بها اسمه، فمن المحتمل ألا يكون قد أدى سوى بعض الوظائف القليلة فى القرية من قبيل جمع الضرائب والاطمئنان على حسن سير الأمور فى أراضيه. وبينما كان

(١) سجلات أراضى قرية ميت أبو على بالشرقية أعوام ١٨٤٥ و١٨٤٦ و١٨٤٨ و١٨٥٧ و١٨٦٦ و١٨٧٥، دار المحفوظات المصرية، القلعة، القاهرة.

(٢) سجلات أراضى قرية ميت أبو على عامى ١٨٤٥ و١٨٤٨.

من يقوم بدور عمدة القرية أو شيخ البلد فيها على ذات القدر من الشدة فيما يتعلق بجمع الضرائب، فإنه على الأقل يستقر فى القرية ويؤدى بعض الوظائف الهامة لمجتمعها مثل النظر فى النزاعات بين العائلات وتوثيق الزيجات، وبهذه الطريقة تتم موازنة الأبعاد القمعية فى سلوك العمدة فى أعين الفلاحين بالخدمات الهامة التى يقدمها لهم.(١) أما المسئول التركى ـ الشركسى فنادرا ما كان يقيم علاقات قوية مع القرية نظرا لخلفيته العرقية واللغوية المغايرة. فالأتراك ـ الشراكسة كانوا فى الغالب ما ينظرون للقرويين المصريين نظرة دونية كونهم فلاحين بسطاء. ولعله من المحتمل أن بهجت بك كان لا يحظى بقبول عامة القرويين فى ميت أبو على نظرا للفائض الذى كان يستخلصه من القرية. ووفقا للجغرافية الاقتصادية والإدارية لمصر، فإن ٢٢٠ من بين قاطنى ميت أبو على الـ ١,٧٨٦ نسبة عاشوا فى عزبة بهجت باشا فى ١٨٩٩ حيث كان يملك بهجت بك وورثته حوالى ٨٠ بالمائة من أراضى القرية المزروعة.(٢)

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن العلاقات بين طلعت حرب والملك وأعضاء العائلة المالكة فى مصر كانت دوما باردة بل وأحيانا عدائية.(٣) وقد يكون هناك القليل من الشك فى أن معاداة طلعت حرب للعائلة المالكة والعناصر التركية ـ الشركسية التى كانت تدعمها يمكن ادراك أصولها بالعودة لعلاقات الإنتاج والإدارة السياسية التى حكمت ميت أبو على. وهذا الموقف يمكن فهمه بصورة أفضل إذا ما نظرنا للصعوبات الاقتصادية التى صادفت والد طلعت حرب والتى يبدو أنها كانت مسئولة عن هجرته والأسرة للقاهرة.

---

(١) Baer. **Studies in the Social History of Modern Egypt**. Chicago: University of Chicago Press, 1969. p. 43.

(٢) A. Boinet. **Geographie economique et administrative de l'Egypte**. Cairo: Imprimerie Nationale, 1902. vol. 1. p. 219.

(٣) كما تشير بعض التقارير، كان الملك فؤاد يشعر بالغيرة من شعبية طلعت حرب. كما شعر حرب بالغضب بسبب إحجام القصر عن إبداء الاهتمام والدعم لبنك مصر. كما كان طلعت حرب غاضبا من الملك فؤاد بسبب إنعامه على أحمد عبود بلقب باشا قبله على الرغم من أن إسهامات عبود فى التنمية الاقتصادية لمصر كانت أقل كثيرًا من تلك التى قدمها طلعت حرب. كما زاد من غضب طلعت حرب الطريقة الارتجالية التى منحه بها الملك فؤاد اللقب؛ حيث دعا حرب الملك فؤاد لزيارة مجمع المحلة الكبرى للغزل والنسيج وخلالها أبدى الملك إعجابه فعبر عنه قائلا: «مبروك يا باشا». مقابلة مع محمد أمين أحمد سكرتير طلعت حرب، ٢٦ يوليو ١٩٧٦؛ والمقطم، ٣١ مارس ١٩٣١.

أصبح حسن محمد حرب بعد ذلك موظفا فى هيئة السكك الحديدية الحكومية قبل ميلاد طلعت حرب فى ١٨٧٦. وإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن خط السكك الحديدية الأول الذى تم إنشاؤه فى مصر بدأه الخديوى عباس حلمى الأول حلال مطلع عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر ولم يكتمل إلا بنهاية العقد، فإنه من المحتمل أن هجرة حسن حرب للقاهرة قد تمت فى فترة ما خلال العقد التالى. وحقيقة تركه للقاهرة وحلوله على القاهرة للعمل بالحكومة ترجح أن الفدان الوحيد الذى امتلكه فى ميت أبو على لم يكن كافيا لإعالته هو وأسرته. وكما سبقت الإشارة فقد كان بحوزة حسن حرب قطعة الأرض الأقل مساحة مقارنة بباقى أفراد عائلة حرب، وبحلول عام ١٨٩٨، تناقصت مساحة ما بحوزته من الأرض من أكبر قليلا من الفدان إلى نصف فدان. ووفقا لسجلات الأراضى عن الفترة من ١٨٩٢ وحتى ١٨٩٩، كان من الواضح أن حسن حرب أُرغِم على بيع جزء من أرضه وفاءا لدين عليه حيث تم الاستيلاء على جزء من الأرض من قبل أصهاره، من عائلة صقر.[١]

وقبل تحول العديد من القبائل البدوية للحياة الحضرية، ولفترة معتبرة بعدها، فإن تمييزا قويا قام بين الفلاحين المصريين والبدو الذين عرفوا أنفسهم على أنهم عرب. هذا الوعى العرقى ظهر فى إطار عائلة طلعت حرب المباشرة، وهى الحقيقة التى أكدتها تعليقاته أمام الزركلى وحواراته مع المراسلين عام ١٩٣٦ فيما يتعلق بخلفية نسبه. وتعريف البدو بأصلهم العربى وقد تأكد ذلك بتعظيم طلعت حرب لهذا الإرث فى كتابه تاريخ دول العرب والإسلام، والذى نشر فى ١٩٠٥.[٢]

كان طلعت حرب شديد الفخر والاهتمام بالتاريخ العربى وشديد العداء للهيمنة الاقتصادية الأجنبية على مصر، وهى العداوة التى عبرت عن نفسها فى مجمل أعمال طلعت حرب سواء تلك المتعلقة بالتاريخ والثقافة العربية أو الاقتصادية منها. وقد اتخذت هذه العداوة طابعا شخصيا خلال تناول طلعت حرب لقضية الربا فى مؤلفه حول بنك وطنى وعلاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك المصريين. والذى هاجم فيه مقرضى الأموال الأجانب لامتصاصهم دماء الفلاحين المصريين من خلال الزج بهم فى دائرة

(١) سجلات أراضى ميت أبو على ١٨٩٢-١٨٩٨.

(٢) الطبعة الثانية. القاهرة: مطبعة جريدة ترك، ١٩٠٥. وقد اكتمل الجزء الأول فقط من هذا العمل.

لا نهائية من القروض.[1] وبينما لا يوجد دليل قوى لتدعيم وجهة النظر هذه، فقد يكون من المحتمل ـ بالنظر لوضعه الهامشى ـ أن يكون حسن حرب قد وجد نفسه مضطرا للجوء للمرابين للإنفاق على نفسه وعلى عائلته.[2] هذا فضلا عن أن حقيقة ورود أسماء على صقر وإخوته كمقرضين لحسن حرب خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر لا تعنى بالضرورة أنهم كانوا المصدر الأصلى للقروض، فقد تكون عائلة صقر قد تدخلت، باعتبارهم أصهار حرب، لحماية أرضه من الضياع التام.[3]

وإذا كان والد طلعت حرب قد واجه مصاعب مالية خلال إقامته فى ميت أبو على، وهو الاحتمال الأكثر ترجيحا، فقد يكون من لمحتمل أن هذه المصاعب قد انعكست على رؤى ابنه السياسية والاقتصادية. فعلى الرغم من أن طلعت حرب لم يعبر بأى طريقة مباشرة عن انتقاده للنخبة التركية ـ الشركسية الحاكمة، فقد كان هذا الانتقاد متضمنا فى كتاباته. فتعظيمه لانتصارات العرب الأوائل جاء مسايرا لتوجه عام لدى العديد من الكتاب الوطنيين المصريين بإلقاء اللوم على الأتراك والإمبراطورية العثمانية لتخلف الشرق المسلم. وأحد الانتقادات الضمنية لطبقة الأتراك ـ الشراكسة الحاكمة تضمنها كتاب طلعت حرب «قناة السويس» والمنشور عام ١٩١٠ والذى تضمن دعاوى حادة ضد تجديد عقد امتياز قناة السويس لمدة خمسين عاما أخرى لشركة قناة السويس المملوكة للأجانب.[4] فلم يتوقف الكتاب فقط عند انتقاد الخديوى عباس حلمى الثانى لقبوله فكرة تمديد عقد الامتياز وإنما امتد ليشمل الخديوين السابقين لتسهيل استيلاء الدول الأجنبية على حقوق مصر الوطنية. ونظرا لعدم قيام النخبة التركية ـ الشركسية السياسية بتوفير الحماية لا لقاطنى القرى المصرية من الضرائب المجحفة ومن ممارسات مقرضى النقود الأجانب ولا للدولة من الامبريالية الأجنبية، فلم تشعر عائلة حرب سوى بالقليل من التعاطف مع حكام مصر.

---

(١) القاهرة: مطبعة الجريدة، ١٩١١. ص ص. ١٤-١٦.

(٢) تستمد وجهة النظر هذه حجيتها من حقيقة أن حسن حرب تملك مساحة الأرض الأصغر من بين كل أفراد العائلة كما كان عضو العائلة الوحيد الذى غادر القرية.

(٣) سجلات أراضى ميت أبو على ١٨٩٢-١٨٩٨.

(٤) محمد طلعت حرب. قناة السويس. القاهرة: مطبعة الجريدة، ١٩١٠.

وفى سياق محاولة الربط بين تجربة عائلة طلعت حرب وبين نشاطه السياسى والاقتصادى فيما بعد، فقد تم التركيز على الصلة الإيجابية التى وضحها بأصوله البدوية، وكذا بمعاداته الواضحة لرأس المال الأجنبى والكامنة للنخبة السياسية من الأتراك ـ الشراكسة لعدم قدرتها على الحد من الآثار السلبية للامبريالية الغربية. غير أنه لا يفوتنا هنا التنويه إلى حقيقة أن طلعت حرب سمى كل شركاته باسم مصر، فى حين لم يكن يوجد مثل هذا الارتباط بمصر كهوية وطنية لا بين الأتراك ـ الشراكسة ولا بين معظم أعضاء الطبقة العليا من الأتراك ـ المصريين. ولهذا لم يكن مفاجئا اكتشاف أن عددا قليلا من البرجوازيين المصريين المتشبهين بالأتراك أو المتأتركين فقط تعامل مع مجموعة شركات مصر، وهو ما كان على نقيض تام من شعور طلعت حرب القوى بالقومية الاقتصادية.

وتعد خلفية طلعت حرب الاقتصادية على قدر عظيم من الأهمية فى تكوين شخصيته وكذا خطه الوظيفى فى أعقاب تخرجه. فبعد إتمامه للتعليم الثانوى فى مدرسة التوفيقية بالقاهرة، التحق طلعت حرب بمدرسة الحقوق الخديوية فى ١٨٨٥، ونظرًا لتأسيسها كوريثة لمدرسة محمد على باشا للإدارة واللغات، فقد منحت مدرسة الحقوق لطلعت حرب فرصة دراسة لغة أجنبية علاوة على دراسة الفقه. وحصل طلعت حرب على شهادة العلوم الأساسية فى الحقوق بدرجة عال فى مايو ١٨٨٦ كما حصل على درجة عالية فى امتحانات الترجمة فى اللغة الفرنسية فى نوفمبر ١٨٨٦ وفبراير ١٨٨٧.[١]

وبالنظر لخلفيته التعليمية يمكن ملاحظة بعد آخر من تطور طلعت حرب. فبالرغم من أن طلعت حرب قد تكون لديه المبررات الكافية للشعور بالعداء نحو الثقافة الغربية، فقد وجد نفسه مرغما خلال سنى دراسته أن يصبح ملما بهذه الثقافة. فقد أجاد الفرنسية كما درس القانون المدنى الفرنسى والذى كان أساس الدراسات القانونية فى مصر كما كان العديد من أساتذته فرنسيين. وهكذا، وجد طلعت حرب نفسه جزءا من مجموعة صغيرة ولكنها آخذة فى التزايد، من قادة الفكر التى تأثرت بكل من الحياة الريفية للقرية والقيم الكونية للحضارة الغربية والتى كانت منتشرة فى المناطق الحضرية. وكان التأثير المتزايد للثقافة الغربية فى مصر، واضحا فى تأثيرها على نظامها التعليمى ومتواكبا مع الاحتلال

(١) ملف الخدمة والمعاش لمحمد طلعت حرب.

البريطانى وسيطرة رأس المال الأجنبى على الاقتصاد، بمعنى أنه كان على طلعت حرب، وكذا على العديد من المصريين المنتمين للطبقة الوسطى البازغة وسريعة الحراك إلى الأعلى، أن يكونوا نوعا ما من التصور للعالم بحيث يكون بمقدورهم الاحتفاظ بالكثير من تقليديتهم بينما يدمجون عناصر أخرى من الثقافة الغربية فيها وهى التى كان لا مفر من مواجهتها بالنظر لمركزهم الاجتماعى. أما بالنظر للجزء الذى تأترك من الطبقة المصرية العليا والتى كانت تتحكم فى قدر كبير من الثروة والسلطة، والتى كانت تنظر بدونية للعامة من المصريين، فكان وصولها لمساحات مشتركة مع الثقافة الغربية أقل صعوبة من التواصل مع عضو ذى أصول برجوازية صغيرة كطلعت حرب. غير أنه فقط مع هذا البزوغ وتشكل قطاع من البرجوازيين المصريين الذى أنتج رجالا كطلعت حرب وسعد زغلول، وُجِد التحدى الأول للثقافة الغربية والاحتلال الأجنبى.

ومن المؤكد أن طلعت حرب تأثر بشدة بالقدر الهائل من الهياج السياسى الذى واكب فترة دراسته بمدرسة الحقوق الخديوية، حيث كان من بين رفاق دراسته بعض ممن أصبحوا قادة للحركة الوطنية فيما بعد كمصطفى كامل ومحمد فريد. كما كان من بين مدرسيه عدد من الوطنيين كعمر لطفى، مؤسس الحركة التعاونية الزراعية، والشاعر والباحث الدينى المطلع حفنى ناصف، وكذلك الشيخ حسونة النواوى، وهو عميد عائلة معروفة من العلماء من قرية النواوى بمحافظة أسيوط. وكما سبقت الإشارة إليه، كانت مدرسة الحقوق الخديوية مسيسة بشدة خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، فى حين كانت فرنسا وبريطانيا لم تتوصلا بعد لاتفاق حول أيهما ستكون صاحبة النفوذ فى مصر. وكان العديد من المصريين فى تلك الفترة يتطلعون لفرنسا لإجبار بريطانيا على إنهاء احتلالها العسكرى لمصر. ونظرا لأن القانون المدنى المصرى مستمد من نظيره الفرنسى، كان العديد من الأساتذة بمدرسة الحقوق من الفرنسيين قد قاموا دون شك بتشجيع فكرة أن فرنسا هى الحليف الطبيعى للحركة الوطنية المصرية الناشئة. وهكذا كان مما لا غبار عليه أن التزام طلعت حرب الجاد فى صف الحركة الوطنية المصرية قد تأثر بتجربته فى مدرسة الحقوق.[1]

---

(١) Goldschmidt. Pp. 310-312.

وفى محاولة لتقييم الأثر الذى خلفته دراسة طلعت حرب للقانون على تفكيره وأنشطته اللاحقة، فإنه يمكننا مقارنته بنوع التعليم الذى تلقاه من خلفه من محامين مصريين، وكذلك التدريب الذى تلقاه من عداهم من مهنيين مصريين ـ لا سيما المهندسين. ففى نظر عدد من المهنيين المصريين، ركز النظام التعليمى الفرنسى على توجه نظرى أكثر تجردا مقارنة بالتوجه البراجماتى الواقعى لنظام التعليم البريطانى. ووفقا لوجهة النظر هذه، فإن التعليم الفرنسى يميل بصورة أكبر لتسييس الطلبة بتشجيع التوجه المجرد أكثر من التوجه الواقعى، وعبر هذا التمييز بين النظرية والبراجماتية عن نفسه بصورة أكثر وضوحا بالأسئلة الأخلاقية والقيمية التى أثيرت فى إطار دراسة القانون بالمقارنة بالتوجه التقنى والقائم على حل المشكلات الذى تطلبته دراسة الهندسة.[1]

ويمكن أن يساعد السؤال المتعلق بأثر التعليم على تنشئة أعضاء البرجوازية المصرية الآخذة فى الاتساع من المصريين على بيان التوجهات المختلفة التى تبنوها بمجرد توليهم مناصب السلطة السياسية والاقتصادية. فعلى سبيل المثال، أظهر اثنان من أعضاء البرجوازية البارزين وهما أحمد عبود وحافظ عفيفى اهتمامًا محدودًا بأهداف الوطنيين بينما كانوا على أهبة الاستعداد للتحالف مع رأس المال الأجنبى. كان عبود قد تلقى تدريبا فى الهندسة، فى حين كان عفيفى طبيبا. أما أعضاء البرجوازية الذين طوروا وعيا وطنيا، من قبيل طلعت حرب ومصطفى كامل ومحمد فريد وبدرجة أقل إسماعيل صدقى، فقد تلقوا تعليما قانونيا.

ولقد تناولنا فيما سبق، متغيرين اثنين وهما خلفية الطبقة الاجتماعية والتعليم، فى إطار محاولة لفهم الرؤى السياسية والاقتصادية التى اعتنقها طلعت حرب. وقد يكون من المفيد عند هذه النقطة مقارنة خلفية الطبقة الاجتماعية لطلعت حرب بتلك التى انتمت إليها الشخصيات البارزة التى احتلت مكان القيادة من برجوازية مصر الصناعية البازغة خلال عقد الثلاثينيات مثل إسماعيل صدقى وأحمد عبود وحافظ عفيفى، وأمين يحيى وقد

(١) مقابلات مع المهندسين عبد الرحمن حمادة (باشا) بالقاهرة فى ٩ يوليو ١٩٧٤ وعباس يسرى بالقاهرة فى ٢ يونيو ١٩٧٤. تمت مقارنة المهندسين بالمحامين نظرا لأنهم كانوا يناظرون المحامين من حيث الأعداد، لا سيما أن الطلب عليهم كان شديدا فى إدارات الرى والسكك الحديدية. وحتى فى التدريب داخل مدارس الهندسة، وكما وضح المهندس يسرى، كان الطلبة الفرنسيون يدرسون بطريقة نظرية أكثر عن نظرائهم فى بريطانيا.

يكون من اللافت للانتباه ملاحظة أن كلا من عبود وعفيفى صعدا للقمة من العدم. ولا يعرف الكثير عن خلفية أحمد عبود سوى أنه كان ينتمى لأسرة معدمة.[١] وكان صعود نجمه فى المجالين السياسى والاقتصادى بهذه السرعة مما يسترعى الانتباه. كذلك كان حافظ عفيفى ابنا لأسرة فقيرة للغاية، ووفقا لابن حافظ عفيفى وابنته، أمين وثريا، فقد ضيع جدهما أراضى العائلة.[٢] وعلى الرغم من صعوبة الأخذ بإدعاء أمين عفيفى بتضييع جده لأراضى العائلة، فإنه يبدو واضحا أن العائلة لم تكن ميسورة. وعلى النقيض من ذلك، ترجع أصول أمين يحيى باشا لعائلة بالغة الثراء.[٣] أما صدقى باشا فكان ينتمى لعائلة من الطبقة الوسطى، حيث شغل والده أحد مناصب البيروقراطية الخديوية مما جعله يتمتع بمركز أعلى من ذلك الذى شغله والد طلعت حرب والذى كان يعمل بإدارة السكك الحديدية الحكومية.[٤]

وفى محاولة ربط بين الخلفية الاجتماعية والتوجه الأيديولوجى، فإنه يمكن الإدعاء بأن أفراد البرجوازية المصرية الذين انتموا بالأساس لطبقات أدنى وأيضًا أولئك الذين كانوا ينتمون للطبقة العليا لم يلتزموا جانب الحركة الوطنية المصرية. على العكس من ذلك، كانت البرجوازية الناشئة، والتى كان طلعت حرب وسعد زغلول وإسماعيل وصدقى وعمر لطفى وحسن النواوى نتاجا لها، وهى التى تصدت لرأس المال الأجنبى. وهو الأمر الذى تأكد أكثر فى حالة أعضاء البرجوازية الناشئة من ذوى الأصول الريفية، حيث كان يتم التمسك بالثقافة التقليدية المصرية فى ريف مصر والمناطق البدائية من المراكز الحضارية ـ كقصر الشوق. وعلاوة على ذلك، فقد كانت طبقة الأعيان وصغار ملاك الأراضى هى الأكثر تمسكا بالقيم التقليدية. وهو ما لم يكن عليه الحال مع العناصر بطيئة الاستيعاب من الطبقات الدنيا فى الريف والحضر وكذلك بالنسبة لأبناء الطبقة العليا والذين كانوا وثيقى الصلة بالثقافة الغربية ورأس المال الأجنبى.

ولفهم قدرة طلعت حرب على الاستفادة من العدائية تجاه رأس المال الأجنبى التى

---

(١) F. O. 407/221/J1989. Lampson to Eden. April 16, 1937. "Egyptian Personalities". P. 23.

(٢) مقابلة مع ثريا عفيفى بالقاهرة فى ١٥ مايو ١٩٧٤؛ وأمين عفيفى بالقاهرة فى ٢٧ مايو ١٩٧٤.

(٣) أحمد يحيى باشا والد أمين يحيى باشا كان «محدث نعمة من الإسكندرية»؛ Berque. Egypt. P. 256.

(٤) إسماعيل صدقى. مذكراتى. القاهرة: دار الهلال، ١٩٥٠. ص. ٥.

سادت فى أعقاب انهيار ١٩٠٧، نجد من الضرورى تسليط بعض الضوء على تجربته الوظيفية. فقد كان طلعت حرب قد عين فى أعقاب تخرجه من مدرسة الحقوق مترجما قانونيا بالقسم القانونى للدائرة السنية فى عام ١٨٨٨ بمرتب عشرة جنيهات مصرية. ثم رُقى رئيسا لقسم المراجعة فى ١٨٨٩ وأصبح مديرا لمكتب حل النزاعات فى ١٩٠١، واستمر فيه حتى عام ١٩٠٥ عندما تم تسييل الدائرة السنية من خلال بيع أراضيها بواسطة مجموعة شركات غربية. وفى ذلك الوقت كان مرتب طلعت حرب قد أصبح ستون جنيها شهريا كما حصل على البكوية.[١]

لقد كانت تجربة طلعت حرب ـ أكثر من أى شئ آخر ـ هى ما ساعده على العلاقات الشخصية العديدة التى مكنته فيما بعد من النجاح فى تأسيس بنك مصر. وكما هو مبين بسجلات أراضى محافظة المنيا، فقد قدمت الدائرة السنية قروضا رهنية لمالكى الأراضى خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.[٢] وبينما لم تكن هذه القروض بحجم تلك التى قدمها بنك الأراضى المصرى، فإنها نجحت فى جعل الدائرة السنية مصدرا هاما للإقتراض. وبوصفه مديرا لمكتب حل النزاعات، فقد شغل طلعت حرب منصبا فاعلا داخل الدائرة، كما أنه من المؤكد أن هذا المنصب أفاده من حيث قدرته على إصدار قرارات بصدد النزاعات التى تعرض عليه.

وعلاوة على خلق صلات بينه وبين عدد كبير من ملاك الأراضى من المصريين، فقد فتح منصب طلعت حرب بالدائرة السنية أمامه قنوات إتصال بالعديد من الأجانب. وكما ذكرنا آنفا، فقد تأسست شركة الدائرة السنية فى١٨٩٨٠ من قبل مجموعة من المستثمرين الأوروبيين لتسييل الأراضى التابعة للدائرة السنية. وهذه الشركة، التى عملت بالتعاون مع بنك الأراضى، عُهِد إليها العمل على تسييل هذه الأراضى لرد الديون الطائلة التى اقترضها الخديوى إسماعيل فى ١٨٧٩ قبل خلعه. وهكذا تواصل طلعت حرب مع العديد من الرأسماليين الغربيين خلال تلك الفترة وكذا العديد من الأجانب الذين كانوا يستثمرون فى مصر حينئذ. وبالتالى فقد تلقى طلعت حرب تعليما فى أساليب إدارة

(١) مصر. ملف الخدمة والمعاش لمحمد طلعت حرب.

(٢) انظر سجلات أراضى بندر المنيا وبنى مزار وبنى أحمد ومغاغة خلال فترتى ١٨٩٢-١٨٩٨ و١٨٩٩-١٩٠٥، دار المحفوظات.

المؤسسات الرأسمالية واستطاع ـ هو وأنصاره ـ الاستفادة منه فى مواجهة رأس المال الأجنبى.[١]

وإذا كانت خبرة طلعت حرب الوظيفية قد مكنته من الإلمام الواسع بآليات العمل الرأسمالى، فقد تعمق هذا الإلمام من خلال خبرته الشخصية. حيث اشترى طلعت حرب عزبة مساحتها ١٨٠ فدان فى نزلة الثابت وهى قرية صغيرة بالمنيا فى ١٩٠٥، والتى وجد طلعت حرب نفسه مرغما على اقتراض ٥,٠٠٠ جنيها من بنك الأراضى المصرى لشرائها.[٢] ونظرا لكونه أحد كبار ملاك الأراضى العديدين الذين كان مستحقا عليهم ديونا طائلة عندما وقع الإنهيار المالى لعام ١٩٠٧، فمما لاشك فيه أنه قد تأثر سلبيا كنتيجة لوقوع الانهيار. ولعله لم يكن من قبيل المصادفة أنه بعد ١٩٠٧، تحولت كتابات طلعت حرب من استعراض الرؤى الثقافية والسياسية إلى استعراض الرؤى الاقتصادية.

وعند مغادرته للدائرة السنية، عُين طلعت حرب مديرًا تنفيذيًّا لشركة كوم أمبو. ونظرا لتملكه لأراض وشغله لمنصب إدارى فى شركة هامة لاستصلاح الأراضى، فقد تحصل طلعت حرب على المركز والثروة اللازمين لاعتباره عضوا ضمن الطبقة العليا، وإن لم يكن من بين أعضائها البارزين. فقد وضعه منصبه فى شركة كوم أمبو على اتصال بعدد من العائلات اليهودية والتى كانت من بين العائلات الأقوى فى قطاع مزدوجى الجنسية داخل الطبقة العليا فى مصر، والتى كان من بينها عائلات سوارس والقطاوى وهرارى ورولو والموصيرى. وفى مقابلة عام ١٩٢٨، ذكر طلعت حرب أنه بعد تركه الخدمة فى الحكومة عام ١٩٠٥ اتصل بفيليكس سوارس، مدير شركة أومنيبوس القاهرة، والذى أسس فيما بعد شركة كوم أمبو ثم عينه مديرا لها. كما اعترف طلعت حرب بالدين الذى يشعر به تجاه عائلة سوارس لتعليمه الكثير عن التجارة والاقتصاد.[٣]

وبجانب شركة أراضى البحيرة، كانت شركة كوم أمبو واحدة من أكبر شركتين

---

(١) فى مقابلة عام ١٩٢٨، ذكر طلعت حرب أن منصبه فى الدائرة السنية علمه الكثير حول اقتصاديات الزراعة وأسباب وقوع العديد من ملاك الأراضى المصريين فى الديون. "ساعة مع طلعت حرب"، غير معرف. **الهلال**. ج ٣٦. مايو ١٩٢٨. ص ص. ٧٧٩-٧٨٠.

(٢) سجلات أراضى نزلة الثابت بالمنيا ١٨٩٩-١٩٠٥، وأرشيفات شركة الدائرة السنية.

(٣) «ساعة مع طلعت حرب». ص. ٧٨٠.

للأراضى فى مصر فى مطلع القرن العشرين. ونظرًا لتوجه اليهود المصريين لإدارة شركاتهم كمؤسسات عائلية، فقد كان اختيار طلعت حرب، وهو مسلم ملتزم ومن خارج العائلة، يعد دليلا على القبول الذى حازه من قبل العائلة نظرا لمهاراته وكذلك اتصالاته التى كان قد اكتسبها عند هذه النقطة من حياته. ونظرا لارتباط عائلتى سوارس والقطاوى بصلات قوية برأس المال الأوروبى، فقد أصبح طلعت حرب أكثر تمرسا بعمليات التمويل الدولى. وكانت الصلة بين عائلة سوارس ورأس المال اليهودى فى ألمانيا، لا سيما بنك الشرق الألمانى ذا أهمية خاصة فى هذا الصدد. ومن هنا يمكن إرجاع غياب ثقة طلعت حرب طيلة حياته فى البريطانيين ليس فقط بسبب تعليمه الفرنسى أو لاعتزازه القوى بالثقافة العربية وإنما للصلات التى أقامها مع رأس المال الأجنبى كنتيجة لعمله بشركة كوم أمبو. وفى عام ١٩٠٦ حول طلعت حرب حسابه البنكى من بنك سوارس لبنك الشرق الألمانى، وهى الخطوة التى ترجح أن عائلة سوارس كانت قد بدأت فى التعاون مع بنك الشرق الألمانى إما قبل أو خلال ١٩٠٦ وأن طلعت حرب إنما كان ببساطة يحذو حذو مشغليه بنقل حسابه المصرفى.[١]

ومما لا شك فيه أن طلعت حرب ظل قريبا بشدة من أعضاء الطبقة العليا من اليهود فى مصر، فقد اختار يوسف القطاوى باشا رئيس الجمعية اليهودية فى مصر نائبا لرئيس بنك مصر فى ١٩٢٠. وتعلم طلعت حرب الكثير من العائلات اليهودية التى عمل معها حول رأس المال الدولى، حيث كان العديد من أعضاء هذه العائلات يقيم فى أوروبا والولايات المتحدة وحتى فى جنوب آسيا والشرق الأقصى وكانوا يساعدون بعضهم فيما يتعلق بالتعاملات المالية. كما زادت صلات طلعت حرب بملاك الأراضى نظرا لكونه أصبح مسئولا مباشرا عن استصلاح وبيع أراضى شركة كوم أمبو، وهى الصلات التى توسعت أكثر عندما استقال طلعت حرب من شركة كوم أمبو فى ١٩٠٨ وأصبح المدير المسئول فى شركة أراضى مصر.[٢] وبينما كانت عمليات شركة كوم أمبو تتركز بالأساس

---

(١) "Deutsche Orientbank Aktiengesellschaft." F.O. 141/633/778. ملف الخدمة والمعاش لمحمد طلعت حرب.

(٢) PPTH. خطاب من سكرتير شركة كوم أمبو يقبل فيه استقالة طلعت حرب كمدير للشركة بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩٠٨.

فى محافظة قنا بصعيد مصر، كانت رقعة أعمال شركة الأراضى أوسع وهى الدلتا. وكانت ممتلكات الشركة الكبيرة فى محافظة الغربية قد مكنت حرب من إقامة علاقات مع العديد من عائلات الأعيان المعروفة فى هذه المنطقة الهامة. كما ساعد عمل طلعت حرب فى محافظة الغربية على زيادة ثروته بشرائه أراضى من الشركة فيها، حيث اشترى إجمالى ٣٠١ فدان فى الفترة بين ١٩٢٠ و١٩٣٩ فى قرى كفر الجنينة وكفر الخوازم وميت العرقى بمركز طلخا بالغربية.[١]

وقد تأثر طلعت حرب بالعائلات اليهودية التى عمل معها كذلك بطريقة أخرى. فلم يكن كثير من المصريين يعتبرون هذه العائلات مصرية حقيقية، وإن كان من الواضح أنهم فى ذات الوقت لا يمكن اعتبارهم أجانب نظرا لكون العديد منهم ولد ونشأ فى مصر. وكان عدد هذه العائلات قد ترقى للقمة من شبه العدم، فوفقا لرينيه قطاوى، ترجع أصول عائلته لقرية القطا بمحافظة الجيزة.[٢] فعلى العكس من معظم العائلات اليهودية الأخرى، كان القطاوية مزارعين ولم يكونوا بالأساس مهاجرين من أوروبا أو من مناطق أخرى بالشرق الأوسط. وحقيقة أن القطاوية والعائلات اليهودية الأخرى استطاعت تكوين مؤسسات رابحة وتبوء مناصب فى المجتمع المصرى وكسب احترام الأوروبيين لم يكن بلا تأثير على طلعت حرب. فهذه العائلات اعتمدت على التضامن بين أفرعها، وكانت فخورة بثقافتها وديانتها وتعمل داخل مجتمعها بطريقة إنسانية.[٣] وقد يستطيع المسلمون الوصول لنفس النتائج أيضا إذا ما أصبحوا أكثر إدراكا للحاجة للتكافل ولإحياء قيمهم التقليدية،[٤] وهى الأفكار الرئيسية التى دأب طلعت حرب على التركيز عليها وتكرارها فى كتاباته.

كذلك أدرك طلعت حرب أن العائلات اليهودية التى عمل معها لديها من الموارد ما

---

(١) سجلات أراضى كفر الجنينة وكفر الخوازم وميت العرقى بالغربية عن فترتى ١٩١٣-١٩٢٦، ١٩٢٧-١٩٣٩.

(٢) مقابلة فى باريس، ٤ يناير ١٩٧٥.

(٣) Jacob Landau. **Jews in Nineteenth Century Egypt**. New York: Praeger, 1972. pp. 231, 247.

(٤) PPTH. مقترح تأسيس بنك وطنى مصرى مقدم من قبل محمد طلعت حرب للمؤتمر المصرى بتاريخ ٣٠ مايو ١٩١١ (انظر أيضا: طلعت حرب. **علاج مصر الاقتصادى**. ص ص ١٤٥-١٤٦).

لا يستطيع المصريون الحصول عليه، فقد كان بمقدورهم الحصول على قدر كبير من رأس المال من البنوك والمستثمرين الأوروبيين، وقد كان بنك الشرق الألمانى مجرد مثال فى هذا الصدد. فإذا كان طلعت حرب يفكر بأنه على المصريين إبداء المزيد من التماسك فيما بينهم للوقوف فى وجه الثقافة الغربية للحيلولة دون إنهيار مؤسساتهم التقليدية، فلن يكون هذا كافيا لمواجهة الهيمنة الأوروبية على الاقتصاد المصرى. حيث أن اليهود كانوا مجتمعا متماسكا فى مصر واستطاعوا الحفاظ على إرثهم الثقافى وكانوا يتمتعون بمصادر لرأس المال لم يتسن للمجتمع المصرى الحصول عليها.

وقد عكست الكتابات الأولى لطلعت حرب، والتى عمد فيها إلى حث المصريين على عدم التخلى عن تقاليدهم، قدرا من السذاجة لرجل لم يتمرس بعد بالشكل الذى يمكنه من الإلمام بصلب المنطق المحرك للإمبريالية الأوروبية. غير أن العمل مع العائلات عالمية الإنتشار من البرجوازية اليهودية المصرية منحه فرصة الاقتراب بصورة أكبر من هذه الظاهرة. فتوصل لنتيجة مفادها أن على المصريين مراكمة رؤوس الأموال إذا ما رغبوا فى مقاومة رأس المال الأجنبى وليتحاشوا وقوع حوادث أخرى من قبيل الانهيار الكارثى الذى وقع فى ١٩٠٧. وخلافا لمعظم قادة الحركة الوطنية المصرية فى تلك الفترة، تمكن طلعت حرب من الوقوف على العلاقات الأكثر أهمية، وإن كانت أقل وضوحا فى شكلها الخارجى، والتى تعبر عن تبعية مصر للغرب. فقد كان الاستقلال السياسى الرسمى لمصر هدفا ساميا فى حد ذاته، إلا أنه لم يكن ليعنى الكثير إذا لم تتمكن مصر من إحكام السيطرة على القوى الاقتصادية التى تتأثر بها. كما تمثلت قوة رأس المال أمام طلعت حرب فى بزوغ نجم بنك الشرق الألمانى والمؤسسات العديدة التى دعمها فى مصر. وكذلك كان طلعت حرب واعيا بدرجة اليقظة والحرص التى أولاها البريطانيون لتوسع نشاط رأس المال الألمانى فى السوق المصرية.

وهكذا كان التأثير الثانى لخبرة طلعت حرب الوظيفية على وجهات نظره ناتجا عن صلته برأس المال الألمانى، خصوصا خلال الزيارة التى قام بها إلى ألمانيا برفقة يوسف القطاوى باشا قبل قيام الحرب العالمية الأولى. وفى تقرير قدمه طلعت حرب والقطاوى باشا إلى لجنة التجارة والصناعة فى ١٩١٦، والذى جاء تحت عنوان «تقرير حول التجارة والصناعة الألمانية»، ركزا على سرعة الوتيرة التى توسعت بها ألمانيا فى مجالى التجارة والصناعة منذ عام ١٨٨٠، كما أبدوا إعجابهم الشديد بكفاءة العامل الألمانى. كما دهشوا

لدرجة الرعاية التى تقدمها الحكومة الألمانية تجاه الطبقة العاملة وكذا التجانس العام فى هيكل المجتمع الألمانى، والذى لم تلق طبيعته المترابطة انتقادا من جانبهم.[١]

ومن المهم فى هذه المقام الإشارة إلى الجزء الذى تناول النظام البنكى الألمانى فى التقرير. ففى هذه الجزئية تحديدا، سلط طلعت حرب والقطاوى الضوء على مفهوم البنك العالمى (Grossbank).[٢] وقد نقلوا جزءا من المادة الثانية من القرار المنشئ للبنك الوطنى الألمانى والتى تنص على أن: «غرض هذه الشركة هو القيام بأى مشروع مهما كانت طبيعته، سواء أكان عمليات بنكية أو إقراض أو عمليات مالية أو إصدار سندات أو مشروعات صناعية».[٣] وقد ذهب د. على الجريتلى إلى أن طلعت حرب والقطاوى ومساعدوهم فى بنك مصر قد أساءوا فهم النظرية الألمانية عن البنوك ذلك أن البنوك العالمية الألمانية كانت ترى فى استثماراتها فى المجال الصناعى مصرفا مؤقتا لفوائض رؤوس الأموال لديها فى حين جاء تعامل بنك مصر مع استثماراته فى شركات مصر كاستثمارات دائمة.[٤] أما جيرشينكرون فقد رأى أن مفهوم طلعت حرب عن النظرية الألمانية للبنوك المختلطة جاء أقرب للحقيقة مما ذهب إليه الجريتلى.[٥] هذا فضلا عن أن الجريتلى غاب عن ذهنه نقطة فى غاية الخطورة ولعلها النقطة الأكثر أهمية هنا، وهى عدم التفاته لأهمية التأثير الذى تركته الأفكار الغربية على رؤية العالم لدى طلعت حرب وقطاع عريض من البرجوازية المصرية. فحقيقة الأمر أن الإمبريالية الأوروبية تترك عادة أثرا ثقافيا ـ علاوة على أثرها المادى ـ على الشعوب التى تستعمرها وعادة ما تقتصر هذه الآثار على النقاشات حول المجالات الفنية وأفكار الديمقراطية الليبرالية، وما يغيب هو ضرورة التركيز على أن الفلسفات الاقتصادية لبرجوازيات العالم الثالث قد تأثرت بشدة بالغرب الصناعى.

---

(١) محمد طلعت حرب. «تقرير حول التجارة والصناعة الألمانية». **مجموعة خطب محمد طلعت حرب**، القاهرة: مطابع مصر، ١٩٢٧. ج ١، ص ص: ١٦-١٧.

(٢) **نفس المرجع السابق**. ص ص. ٢٢-٢٦.

(٣) **نفس المرجع السابق**. ص. ٢٢.

(٤) الجريتلى. **الهيكل**. ص ص. ٤٣٩-٤٤٠.

(٥) Alexander Gerschenkron. **Backwardness in Historical Perspective**. Cambridge, Mass.: The Belknap Press, 1966). P. 14.

البنوك الألمانية، كما تقدم القول، واكبت رحلة المؤسسات الصناعية من المهد إلى اللحد، أى منذ تأسيسها وحتى تسييلها وساندتها فى مواجهة كل التقلبات التى واجهتها."

وهناك بعد ثالث هام فى الخبرة العملية لطلعت حرب تمثل فى عمله كوكيل لعدد من كبار ملاك الأراضى المصريين المعروفين، كان من بينهم: فؤاد سالم حجازى، ابن الناشط الوطنى المعروف لطيف سالم حجازى؛ وأحمد بليغ باشا، الناظر السابق للدائرة السنية، وعمر سلطان باشا ـ وهو الأكثر أهمية ـ، لأنه العضو الأكثر بروزا من بين أعضاء العائلة واسعة النفوذ والثراء وهى عائلة سلطان بمحافظة المنيا.[1] وكان لخبرة طلعت حرب كوكيل عن كبار الملاك هؤلاء نتيجتان: الأولى أنها أسست لعلاقات متينة لطلعت حرب مع عدد من العائلات القوية والتى كانت ذات نفع كبير له خلال تأسيسه لبنك مصر فيما بعد.[2] أما الثانية فقد مكنت طلعت حرب من اكتساب المهارات اللازمة للتعامل مع أعضاء الطبقة المصرية العليا ممن هم أعلى منه فى المركز الاجتماعى، وهى المهارات الهامة التى احتاج طلعت حرب إلى تطويرها بشدة نظرا لأنه وجد نفسه مرغما على استعمالها بين الحين والآخر لتحقيق التوازن بين القوى السياسية والاقتصادية المتنافسة فى مصر خلال محاولاته لتأسيس مجموعة شركات مصر. وبصفته وكيلا لعمر سلطان، كان طلعت حرب مسئولا عن مباشرة أعماله المالية، وكان عمر سلطان مدمنا على المقامرة وكثيرا ما كان يرسل لطلعت حرب طالبا نقودا لإنفاقها فى صالات القمار الأوروبية. وما كان تأنيب طلعت حرب القاسى لسلطان بسبب إسرافه فى إنفاق نقوده إلا مؤشرا على أنه كان يتمتع بدرجة كبيرة من التأثير الخفى عليه على الرغم من كونه موظفا لديه من الناحية الرسمية.[3] كما تشير المراسلات بين طلعت حرب وفؤاد حجازى إلى الحرية المطلقة تقريبا التى كان يتمتع بها طلعت حرب فى التعامل على حسابات وأراضى موكله.

أما البعد الهام الرابع فى أنشطة طلعت حرب والذى أسهم فى تطوره على المستوى

---

(١) .**PPTH** وثائق ١٤ و١٩؛ توكيلات بتاريخ ٣٠ سبتمبر ١٩٠٧ و ١٧ يونيو ١٩٠٨.
.**PPFSH** توكيل بتاريخ ٢٢ يناير ١٩١٦. وفى الواقع، وكما تبين الخطابات الشخصية المتبادلة بين طلعت حرب وفؤاد سالم حجازى، فقد كان طلعت حرب وكيلا غير رسميا للأخير منذ ١٨٩٨، راجع خطاب حرب لحجازى حول الأوضاع المادية لممتلكات الأخير بتاريخ ٢٣ أغسطس ١٨٩٨.

(٢) كنتيجة لإدارته لدائرة عمر سلطان، نشأت صلات كثيرة بينه وبين الفلاحين والمزارعين «**احتككت كثيرا بالفلاحين والمزارعين**». «ساعة مع طلعت حرب». ص. ٧٨٠.

(٣) .**PPTH** من طلعت حرب لعمر سلطان، بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩٠٩ فى رد على تيليجرام من سلطان فى ميلانو بإيطاليا طالبا إمداده بأموال.

الشخصى فكانت مشاركته فى الحياة السياسية والفكرية المصرية. وكما تقدم، فمن المحتمل أن تكون المشكلات المالية التى صادفت عائلة طلعت حرب فى ميت أبو على قد لعبت دورا هاما فى تشكيل وعيه السياسى، حيث ورد ذكر مشكلة الربا وقيود الديون التى تثقل كاهل الفلاحين والمزارعين غير مرة فى كتاباته، الأمر الذى يجعل من الصعب عدم الوصول لخلاصة مؤداها أن هذه المشكلات كانت عاملا أساسيا فى جذب طلعت حرب لمركز السياسة المصرية والنشاط الثقافى.[١]

وعلى الرغم من صعوبة الوقوف على نقطة البداية فى أنشطة طلعت حرب السياسية، فمن الواضح أنه كان متأثرا للغاية بالثورة العرابية عام ١٨٨٢، وأنه كان قد أضحى وطنيا أصيلا مع حلول وقت التحاقه بمدرسة الحقوق. وقد ارتبط طلعت حرب بصلات وثيقة مع عمر لطفى ومحمد فريد ومصطفى كامل خلال فترة دراسته للقانون، حيث كانت مدرسة الحقوق بؤرة لنشاط الحزب الوطنى. ونظرا لكل ذلك وأيضًا للدور الذى لعبه محمد فريد فى إيجاد وظيفة له فى الدائرة السنية وصداقته لفؤاد سالم حجازى، فقد انضم طلعت حرب للحزب الوطنى فى وقت ما خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر.[٢]

كما شهدت نهاية القرن التاسع عشر دخول طلعت حرب فى الجدل الذى دار حول ماهية المجتمع الشرقى. وبينما بدت كتابات طلعت حرب خلال هذه الفترة ثقافية فى طبيعتها، فقد كان مضمونها سياسيا للغاية. وكانت أولى مشاركاته المعروفة فى المجالين السياسى والفكرى قيامه بترجمة خطاب أُرسِل من عثمان بك إسماعيل، سكرتير السلطان العثمانى، لمؤتمر المستشرقين المنعقد فى باريس فى ١٨٩٤ من الفرنسية للعربية. وكان هذا الخطاب ردًّا على الموضوع الرئيسى للمؤتمر وهو أن الإسلام انتشر عن طريق استخدام

---

(١) قضية الربا، والتى تطرق إليها طلعت حرب فى **علاج مصر الاقتصادى** و**L'Europe et l'Islam** وفى عدد من كتاباته الأخرى، ظهرت كذلك خلال المقابلة المشار إليها سابقا. فعند حديثه عن الثورة العرابية، ذكر أن أحد أسباب قيامها كانت الحاجة لإنشاء بنك وطنى خصوصا «لحماية المزارعين من قهر المرابين». «ساعة مع طلعت حرب» ص. ٧٧٨. انظر كذلك المقالة حول أسباب تأسيس بنك مصر فى **الأخبار**، ٢٧ يونيو ١٩٢٠.

(٢) حافظ محمود وآخرون. **طلعت حرب**. (القاهرة: شركة مصر للطباعة، ١٩٣٦). ص. ٩؛ محمود الهجرسى، **طلعت حرب: مسرحية إذاعية من راديو صوت العرب**. (القاهرة، ١٩٦٥). ص. ٣٣؛ «ساعة مع طلعت حرب» ص. ٧٨١.

القوة، وكان هذا الإدعاء أن الإسلام انتشر بالغزو وليس بسبب الاقتناع بمزاياه من قبل أتباعه، قد استتبع ردود أفعال غاضبة من الوطنيين أمثال طلعت حرب.

وقد جاءت ترجمة طلعت حرب تحت عنوان «كلمة الحق عن الإسلام والدولة العثمانية».[١] فخلال هذه الفترة، ارتأى طلعت حرب دوره كمفكر مصرى يقف موقف المدافع عن رجالات دولته فى وجه أفكار المستشرقين الغربيين الهدامة، فجاء كتاباه خلال هذه الفترة عن موقع المرأة فى المجتمع الإسلامى. وبينما كان الهدف المباشر لهجوم طلعت حرب هو الرؤى التى عبر عنها قاسم أمين فى كتابه تحرير المرأة، فقد كان يهاجم كذلك ـ ولو بطريقة غير مباشرة ـ دراسة وضعها مستشرق فرنسى عام ١٨٥٤ كان يهدف فيها للحط من قدر المجتمع المسلم من خلال التعرض لوضع المرأة فى الإسلام.[٢]

وعلى الرغم مما عرف عن الطبيعة المحافظة لطلعت حرب طيلة حياته، فإنه لم يكن يرى كتاباته حول وضع المرأة فى الإسلام كرد فعل.[٣] بل إنه من عدة نواحى، لم يكن يرى أن كتاباته عن المرأة تقتصر على وضع المرأة فقط، وإنما كان يرى فى نفسه الرد على محاولات المفكرين الغربيين تقويض تركيبة المجتمع المصرى من خلال تدمير بنية العائلة فيه. فمثلاً، كانت إزالة الحجاب رمزا للجهود الرامية إلى إخضاع المرأة المسلمة لأنماط السلوك والمواقف الغربية، وبمجرد حدوث ذلك، فإن العائلة وبالتالى المجتمع بأسره سيفقد تماسكه.

وفى إطار محاولة تبرير موقفه بأن المرأة فى المجتمع الإسلامى كانت أكثر تحررا من نظيراتها فى المجتمع الغربى وبالتالى فهى ليست بحاجة للتساوى بالرجال من حيث الحقوق، اعتمد طلعت حرب على آراء الشيخ محمد عبده.[٤] وكان طلعت حرب، كما كان

---

(١) محمود وآخرون. ص ص. ١١-١٤.

(٢) **نفس المرجع السابق**. ص. ١٥؛ محمد طلعت حرب. **تربية المرأة والحجاب**؛ **وفصل الخطاب عن المرأة والحجاب**. كلا هذين الكتابين نشر بواسطة مطبعة التركى بالقاهرة فى ١٨٩٩ و١٩٠١ على الترتيب.

(٣) انظر، على سبيل المثال، «ساعة مع طلعت حرب». ص. ٧٨٠؛ و «طلعت حرب يتحدث عن شركة الغزل والنسيج». **السياسة الأسبوعية**. ٢٩ يناير ١٩٢٧، ص ص. ٧-٨، والتى سئل فيها طلعت حرب عن رؤاه حول المرأة.

(٤) على سبيل المثال، استخدم طلعت حرب العبارة التالية من تأليف الشيخ محمد عبده فى صفحة العنوان من **فصل الخطاب عن المرأة والحجاب**: «لقد خلق الله النساء لإدارة البيوت وهذه هى المساحة التى خصصها لهن أزواجهن. كما جاء عقلهن كافيا لاحتياجاتهن فى هذا الصدد. القانون الإسلامى صالح لكل زمان ووفقا لتشريعاته، فإن النساء غير خاضعات للرجال ولا إماء لهن، بل هن شاهدات ووارثات». والشاهد على =

محمد عبده، إزاء تناقض استعصى على الحل. فبينما رفض الاثنان بشدة أى تقليد تابع للمجتمع الغربى، فإن كلا منهما كذلك وقف فى وجه أى رأى عبارة عن مجرد رد فعل للغرب.[1] ولم يكن بمقدور أى منهما أن يمزج بشكل صحيح بين ما ارتآه أبعادا مرغوبا فيها من كل من المجتمع المصرى المسلم والمجتمع الرأسمالى الغربى. وبالاعتماد على دعاوى العلماء البارزين من قبيل محمد عبده وحفنى ناصف، كان طلعت حرب يمثل طليعة برجوازية محلية تهدف للإصلاح، وبينما كانت تنادى بسياسات اقتصادية ليبرالية، فقد ظلت محافظة على أساسيات القضايا الاجتماعية.

وعلى الرغم من مشاعر طلعت حرب المختلطة تجاه الغرب، فمن الواضح أن كتاباته الأولى كانت ضد الامبريالية. فكتابه التالى الذى ظهر بعد ذلك كان تاريخ دول العرب والإسلام.[2] وبينما تعرض الكتاب لوضع المجتمع العربى من الجاهلية وحتى عصر الخلفاء الراشدين مما يبدو ملمحا برئ المضمون، فإن جزءا لا يستهان به من مقدمة الكتاب تضمن هجوما على الكيانات الامبريالية الفرنسية والبريطانية فى العالم العربى. وفى ذات العام حرر طلعت حرب كتابا بعنوان «أوروبا والإسلام» إم. جى. هانتو والشيخ محمد عبده. وكان الهدف الرئيسى من وراء هذا الكتاب هو تعريف القارئ الأوروبى بردود الشيخ محمد عبده فى الجريدة اليومية القاهرية المؤيد على سلسلة مقالات المستشرق الفرنسى ووزير الخارجية الأسبق إم. جى. هانتو والتى نشرها فى Le Journal. غير أن طلعت حرب استغل مقدمة الكتاب لشن هجوم على النزعة الاستعمارية الأوروبية، حيث تساءل فيها كيف يمكن للغرب المسيحى أن يهاجم الإسلام مع وجود كل هذا القدر من الفقر والانحلال فى المجتمع الغربى، ومع قيام الغرب بكل هذه المجازر فى أنحاء كثيرة من العالم الإسلامى وغير الغربى إبان احتلالها.[3]

=قرب طلعت حرب من محمد عبده هو الرثاء القوى الذى كتبه فى وداع المفتى الأكبر فى الجورنال القاهرى **L'Egypte** فى ١٣ يوليو ١٩٠٥. تمت إعادة طبع النعى:

Mohammed Talaat Bek Harb (ed.). **L'Europe et l'Islam: M.G. Hanotaux et le Cheik Mohammed Abdoh**. Cairo: Imprimeries Jean Politics, 1905. pp. 73-78.

(١) محمود وآخرون. ص ص. ٢١، ٢٤.

(٢) ويبدو أن هذا الكتاب قد حقق بعض الشهرة، فمن بين أوراق طلعت حرب الخاصة كان خطابا بتاريخ ٩ أكتوبر ١٩٠٦ من زعيم دينى هندى (سيد إقبال أحمد) يمتدح فيه الكتاب. P.A. from Fatehgrah.

(٣) **L'Europe et l'Islam**. P.7.

غير أن طلعت حرب كان حريصا على بيان أنه لم يكن يهاجم المسيحية، فلم تكن المسيحية أو المسيحيون الغربيون هم من أفسدوا المجتمعات المسلمة ولكنها كانت ممارسات المحتلين و«المرابين والمجرمين ومالكى الحانات وأولئك الفاقدين لإدراكهم الذين يراهم المرء بين الشرقيين والأوروبيين على حد سواء» هى التى خلقت المشكلة.[١] وإذا ما أخذنا فى الاعتبار مستوى تعليم طلعت حرب وقراءته المتعمقة للكتب الأوروبية ورحلاته لأوروبا وكذا أصدقائه ومعاونيه العديدين من الأوروبيين والمتفرنجين، يمكن القول بأن طلعت حرب كان وثيق الصلة بالمجتمع والثقافة الأوروبيين لدرجة يصعب معها قيامه بالحكم عليها فى ضوء أى صورة نمطية معينة.[٢] كما كان طلعت حرب فخورا بأصدقائه ومعارفه العديدين من الأوروبيين. وقد اشتملت أوراقه الخاصة على مراسلات بين عامى ١٩٠١ و١٩٠٤ مع أمريكى مغترب يدعى سيدنى سميث وكان يعيش فى بلجيكا ويعمل لدى شركة أحبار كارتر ـ بوسطن.[٣] والمثير فى هذه المراسلات هو حقيقة أن سميث كان معجبا شديد الحماس بالثقافة العربية ـ الإسلامية.[٤] وقد أتاح سميث لطلعت حرب فرصة التعبير عن آرائه

---

(١) محمود وآخرون. ص. ٢٤.

(٢) من بين أوراق طلعت حرب الخاصة توجد العديد من المؤشرات على مصالحه الدولية وصلته الوثيقة بالحضارة الغربية، والأمثلة على ذلك هى من قبيل قوائم الكتب التى اشتراها من مكتبة جورج روستان بباريس، زيارته مع حامد خلوصى للجريدة الباريسية اليومية **Le Matin**، وهديته للجامعة المصرية المكونة من عدد ضخم من الكتب فى الفلسفة. وبالنظر لتقليدية طلعت حرب، فقد يكون من المهم ملاحظة قيامه بشراء عدد من الكتب حول حدة الإدراك. الأوراق بتاريخ ١٠ مارس ١٩١٠، ١ يوليو ١٩٠٧ و١٩ ديسمبر ١٩١٠ على الترتيب.

(٣) **PPTH**. وثائق ١-٦، خطابات بتواريخ ١٣ سبتمبر ١٩٠٣، ٥ نوفمبر ١٩٠٣، ١٢ نوفمبر ١٩٠٣، ٥ ديسمبر ١٩٠٣، ١٧ ديسمبر ١٩٠٣، و١٦ أبريل ١٩٠٤.

(٤) وتضح هذه النقطة فى عبارات سميث حول الإسلام والمجتمع العربى، فعلى سبيل المثال:

" L'arabe represente pour moi, etant sincere, le plus haut type de l'humanite, peut-etre parceque (*sic*) ses principes sone ceux que j'estime le plus . خطاب سميث لطلعت J'ai depeint vos habitudes, le peu d'autorite de vos pretres, la liberte de la Mosquee (*sic*) pour les pauvres aussi bien que les riches (et dans votre religion elle est reellement le Maison de Dieu), le veritable sens du harem; votre vie si pure, la democratie reelle de votre vie ."**PPTH** من سميث لطلعت . حرب فى ٣٠ اكتوبر ١٩٠٣. كذلك، حرب ١٨ نوفمبر ١٩٠٣.

بخصوص المجتمع العربى لغربى متعاطف. وبينما مثلت خطابات طلعت حرب لسميث توصيفا لمثالية المجتمع العربى، فإنها عبرت كذلك ـ وربما بتفصيل أكثر مقارنة بكتاباته ـ عن رؤيته للحد الذى مثل بالنسبة المجتمع العربى عنده بديلا عن التراجع الأخلاقى للغرب.[١] وبهذه الطريقة يكون طلعت حرب قد تبنى نظرة للعالم لم تختلف كثيرا عن تلك التى اعتنقها غيره من المفكرين المعاصرين له، والتى تقضى بأنه على الرغم من التقدم التكنولوجى للغرب، فقد التفت الغرب عن العديد من مؤسساته وقيمه التقليدية كالأسرة والدين. غير أنه إذا كان المجتمع العربى المسلم يسمو من الناحية الروحية عن الغرب، فإن الفرد لا يجب أن يخلص من ذلك إلى ضرورة رفض الغرب كله بل إلى حقيقة أن العالم الإسلامى يستطيع التعامل مع الغرب على قدم المساواة.

وبالإضافة لكتاباته السياسية، فقد كان طلعت حرب نشيطا كذلك فى السياسات الحزبية، فعلى الرغم من ثناء مصطفى كامل على كتابات طلعت حرب عن المرأة والمجتمع الإسلامى فى مقالة له فى اللواء فى عام ١٩٠٠، فقد انقلبت العلاقة بينهما لحالة من العدائية الشديدة بحلول عام ١٩٠٢.[٢] وفى خطاب كتبه طلعت حرب لفؤاد سالم حجازى من لندن، أنه غادر حجرته بالفندق عن عمد لتجنب الالتقاء بمصطفى كامل الذى أتى للقاء رفيقه فى الرحلة، حامد خلوصى. وبينما لم تتضح طبيعة الخلاف بينهما، فإن حدة لهجة الخطاب ورفض طلعت حرب قبول توسط خلوصى لديه لمقابلة مصطفى كامل، يرجحان أنه كان خلافا شديدا.[٣]

إلا أنه فى عام ١٩٠٥، بدا أن العلاقات بين الطرفين قد تحسنت مع تراجع الخلافات بينهما وقيام مصطفى كامل بكتابة مقال فى اللواء مهنئا فيه طلعت حرب لكونه أول

---

(١) **PPTH.** خطابا طلعت حرب لسميث بتاريخ ٧ و١٧ نوفمبر ١٩٠٣.

(٢) للإطلاع على ثناء مصطفى كامل على طلعت حرب انظر: عبد الرحمن الرافعى. **مصطفى كامل**. القاهرة: مطبعة النهضة المصرية، ١٩٦٢. ص. ٤١٦.

(٣) **PPFSH.** خطاب طلعت حرب لفؤاد سالم الحجازى بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٠٢.

من المهم ملاحظة أن فؤاد الحجازى كان صديقا مقربا من مصطفى كامل حيث كانا كلاهما من الدارسين بمدرسة الحقوق الخديوية، وبلا شك فقد كان الحجازى طرفا فى تقديم طلعت حرب لمصطفى كامل. انظر عبد العزيز حافظ الدنيا (محرر). **رسائل تاريخية من مصطفى كامل لفؤاد سالم الحجازى**. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٩.

مصرى يتم تعيينه فى أهم شركتين فى مصر، وهما شركة أراضى كوم أمبو وشركة أراضى مصر.[١] إلا أن هذا لم يثن طلعت حرب عن قبول دعوة أحمد لطفى السيد للانضمام لحزب الأمة الذى أسسه، ثم انقطعت كل صلة له بالحزب الوطنى فى ١٩٠٨. وكان عمر سلطان مساهما بارزا فى صحيفة الحزب الوطنى اللواء، الأمر الذى مكنه من تولى الأمانة المالية للحزب بالمقابل، لكن مع ضغوط طلعت حرب، أوقف عمر سلطان كل معوناته المالية للحزب فى ١٩٠٨.[٢] هذا التصرف لم يكشف فقط عن مدى النفوذ السياسى الذى كان يتمتع به طلعت حرب فى ذلك الوقت وإنما عن مدى تحكمه فى أموال عمر سلطان كذلك.[٣] وهكذا فعلى الرغم من كونه عضوا فى الحزب الوطنى فى سنواته الأولى، فقد تحول ولاؤه السياسى فى ١٩٠٧. وقد ظهر اسم طلعت حرب من بين أسماء مؤسسى الجريدة، وهى الصحيفة الرسمية لحزب الأمة، كما أبرزت المقالات التى كتبها للجريدة فى ١٩٠٧ و١٩٠٨ و١٩١٠ صلته الوثيقة بالحزب.[٤]

وفى إطار تفصيل تحالفات طلعت حرب السياسية، يجب ألا يفوتنا أنه خلال سنى دراسته فى مدرسة الحقوق الخديوية، أقام علاقات قوية بمصطفى كامل ومحمد فريد، زعيما الحزب الوطنى فى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى. وبينما كان مديرا لمكتب المنازعات بالدائرة السنية، فقد أقام طلعت حرب علاقات بعدد من ملاك الأراضى من المصريين الذين كونوا حزب الأمة فى ١٩٠٧، فتطور هذه العلاقات الأخيرة والخلاف الواضح بين طلعت حرب وقيادة الحزب الوطنى هى ما يفسر التحول فى تحالفاته الحزبية.

وكانت الخلافات السياسية التى وجد طلعت حرب نفسه إزاءها بين عامى ١٩٠٢ و١٩٠٨ دافعا له لمحاولة التحرر مما أسماه بالتشتت الحزبى. فكانت هذه الخبرات الأولية لطلعت حرب بالسياسات الحزبية هى الدافع الرئيس وراء قراره تحاشى الربط بين بنك

---

(١) الرافعى. **مصطفى كامل**. ص. ٤١٦.

(٢) **The Memoirs of Muhammad Farid**, as cited by Goldschmidt. P. 325.

(٣) تعرف طلعت حرب على عمر سلطان وتوطدت علاقته به خلال فترة عمله فى الدائرة السنية وشركة كوم أمبو. مقابلات مع ابنة عم عمر سلطان، مدام حواء إدريس، بالقاهرة فى ٢٥ مارس ١٩٧٤، ومع السكرتير الإدارى لطلعت حرب، محمد أمين أحمد، بالقاهرة فى ٢٦ يوليو ١٩٧٣. والطريقة التى تقابل بها طلعت حرب مع عمر سلطان تؤكد أهمية بدايات عمره الوظيفى.

(٤) **الجريدة**. ١٣ مارس ١٩٠٧، ٢ ديسمبر ١٩٠٨، ٩ مايو ١٩٠٧ و٣ و٧ فبراير ١٩١٠.

مصر وحزب سياسى بعينه.[١] وبعد عام ١٩٠٧، انصرفت كتابات طلعت حرب لتناول القضايا الاقتصادية فقط، وبالمثل اقتصر فى أنشطته السياسية بعد ١٩٠٧ على التركيز على القضايا الاقتصادية والابتعاد عن السياسات الحزبية. ولعل المثال الواضح هنا هو الدور الذى لعبه طلعت حرب فى الخلاف حول تجديد عقد امتياز قناة السويس. ففى ١٩١٠، حثت شركة قناة السويس، بدعم من الحكومة المصرية ومستشاريها البريطانيين، الجمعية العمومية المصرية على تمرير خطة يتم بمقتضاها تمديد امتياز الشركة لمدة أربعين عاما إضافية من ١٩٦٨ وحتى ٢٠٠٨،[٢] فشكلت الجمعية العمومية لجنة خاصة لدراسة المقترح الحكومى، وعهدت اللجنة بدورها لطلعت حرب وسمير صبرى باشا بإعداد تقرير حول المسالة.[٣] وكان قد تم اختيار طلعت حرب لأنه شارك بالفعل فى دراسة عن قناة السويس نشرت فى ١٩١٠ وكتب عدة مقالات فى الصحافة استنكر فيها غياب السيادة المصرية على القناة والقدر الهزيل من الأرباح الذى تحصله مصر منها.[٤] وقد بدا جليا أن طلعت حرب، وليس سمير صبرى، كان المؤلف الرئيسى للتقرير الذى قدم إلى لجنة الجمعية العمومية. وكان تمديد امتياز قناة السويس قد أثار موجة عارمة من الغضب لدى الوطنيين المصريين أسهمت فى اغتيال رئيس الوزراء المصرى بطرس غالى باشا فى ١٩١٠.[٥] كما كانت هناك معارضة للمقترح داخل البرلمان المصرى، غير أن التقرير الذى أعده طلعت حرب وسمير صبرى والذى بينا فيه حجم الخسائر التى ستعود على الحكومة المصرية من جراء هذا التمديد هو الذى قدم مسوغا قويا لمعارضة التمديد، فما كان من البرلمان إلا أن رفض تمرير المقترح والتزم الخديوى برغبة المجلس.[٦] ومرة أخر، فمن المهم الانتباه لمقدرة طلعت حرب على تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية من خلف الستار؛ فبالرغم من قيامه بكتابة معظم إن لم يكن كل التقرير، فقد فضل طلعت حرب عدم ذكر اسمه حتى فى التقرير النهائى للجنة.[٧]

---

(١) كان هذا ملمحا تكرر تقريبا فى كل المقابلات التى أجريتها مع السياسيين السابقين وموظفى بنك مصر وشركاته المتقاعدين.

(٢) Goldschmidt. P. 325.

(٣) شفيق. ج ٢ الفصل الثانى. ص. ٢٠٧.

(٤) الجريدة. ٣ و٧ فبراير ١٩١٠.

(٥) Goldschmidt. P. 325.

(٦) شفيق. ج ٢ الفصل الثانى. ص. ٢٠٨.

(٧) الحكومة المصرية. **محاضر الجمعية العمومية المصرية، ١٩١٠**، الجلسة الرابعة عشر. ص ص. ٤١٠-٤٤٥.

وواكب تراجع طلعت حرب التدريجى عن الانغماس فى الحياة السياسية المصرية والذى بدأ مع خلافاته مع قيادة الحزب الوطنى تزايد اهتمامه بالقضايا الاقتصادية، لا سيما مع تأسيس مؤسسات إقراض يملكها المصريون ويديرونها. ففى ١٩١٠، قام طلعت حرب بالتعاون مع عمر لطفى، أستاذه السابق فى القانون وزعيم حركة التعاونيات، والأمير حسين كامل وألفريد عيد، وهو رجل أعمال بلجيكى، وعدد من التجار القاهريين المعروفين بتأسيس شركة التضامن المالى بمصر.[١] وكانت شركة التمويل التعاونية صغيرة نسبيا وكان عملاؤها فى الغالب من تجار المدن. وعملا على جذب انتباه كبار ملاك الأراضى فى الريف للاستثمار فى بنك وطنى، نشر طلعت حرب علاج مصر الاقتصادى وقدم مقترحه لإنشاء بنك وطنى للمؤتمر المصرى الأول فى ١٩١١.[٢] وكان لا يوجد أدنى شك هنا فى أن طلعت حرب قد قطع كل صلاته بالحياة الحزبية فى مصر، فمنذ ١٩١١ وحتى قيامه بتأسيس بنك مصر، استمر فى قصر أنشطته على المسائل الاقتصادية؛ حيث أصبح نائب رئيس الغرفة التجارية المصرية كما اختير للانضمام للجنة الموارد بوزارة المالية فى ١٩١٥ وكذلك عضوا بلجنة التجارة والصناعة كما حاول فى ذات العام تأسيس شركة لتمويل جنى المحاصيل المصرية (شركة تمويل المحاصيل المصرية).[٣]

وفى إيجاز، فإن أصول طلعت حرب الاجتماعية وخبراته التعليمية والمهنية ومساهمته فى الحياة السياسية والفكرية المصرية قد شكلت التركيبة المثلى لتأهيله لتأسيس أول بنك وطنى فى مصر. أما فشل البنك فى تحقيق المتوقع من ورائه ودور طلعت حرب فى هذا الفشل فهو موضوع الفصول التالية.

---

(١) بنك التضامن المالى. **اليوبيل الذهبى**. القاهرة: الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٦٠.

(٢) كل ما تلقاه طلعت حرب بالمقابل كان عددا من الخطابات والتقارير بأن مشروعه المقترح حول بنك وطنى تحت الدراسة. **PPTH** من سكرتير لجنة مشروع البنك الوطنى بالمؤتمر الوطنى لطلعت حرب، ١٧ يناير ١٩١٢ و١١ مارس ١٩١٣.

(٢) وعلى الرغم من عدم إمكانية تحديد العام الذى تولى فيه المنصب، فقد كان طلعت حرب نائبا لرئيس الغرفة التجارية المصرية فى ١٩١٨. انظر **جريدة الغرفة التجارية المصرية** (يناير ١٩١٨). ص. ٢؛ وبخصوص دور حرب فى لجنتى الموارد و التجارة والصناعة انظر: مصطفى كامل الفلكى. **طلعت حرب: بطل الاستقلال الاقتصادى**. القاهرة: دار الطباعة المصرية، ١٩٤٠. ص. ٢٦؛ وبخصوص دور طلعت حرب فيما يتعلق بتكوين شركة لجنى المحاصيل الجديدة انظر: «ساعة مع طلعت حرب» ص. ٧٨٠.